

تاريخ القبول: 2021/01/05

تاريخ الإرسال: 2020/11/11

تاريخ النشر: 2021/11/04

## حضور الفكر الصوفي في رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي الشخصية أنموذجا

### The Presence of the Sufi ideology in the novel “The Pure Guardian comes back to its highly respected position “ the Character as a study case

عبد الكريم صاهد<sup>1</sup>، أ.د. حورية بن سالم<sup>2</sup>

جامعة تيزي وزو (الجزائر) ، [1abdelkrimshd@gmail.com](mailto:abdelkrimshd@gmail.com)

جامعة تيزي وزو (الجزائر) ، [2houriabensahem@yahoo.fr](mailto:houriabensahem@yahoo.fr)

#### المخلص:

تتلخص هذه الورقة البحثية حول تعالق الفكر الصوفي مع المتن الروائي من خلال تحركات الشخصية الصوفية الرئيسية ومن ثمة التحدث على عناصر أساسية تكوّن معادلة الصوفية، وتعالقها مع الرواية، فحاولت أن أوضح وأبين درجة التغلغل الواضح والعميق بين الصوفية كآلية من آليات التعبير المستحدثة في الرواية المعاصرة، مركزا بصفة كبيرة على الشخصية كفاعل حقيقي سيّما بعد التحول الواضح لهذه الشخصية في الرواية.

الكلمات المفتاحية: الشخصية، التصوف، الرواية.

#### Abstract:

this paper evolves around the connection between the Sufi ideology and the novelistic originality through the actions of the main character in the different landscapes of the novel, and then talking about some central elements which would

parallel to Sufism and its connection to the novel, I attempted to clarify and project the clear depth of penetration of Sufism as a mechanism of the many creative mechanisms in the Modernist novel, giving the main character a more focus as a real factor especially after the obvious change of the character in this novel  
**Keywords:** character, Sufism, Novel.

المؤلف المرسل: عبد الكريم صاهد abdelkrimshd@gmail.com

## 1. مقدمة:

لا يشك عاقل، ولا يختلف اثنان، ولا ينكر إلا جاحد في أن العديد من الأدياء المعاصرين يعيشون اغترابا في مجتمعهم والذي سبب لهم نوعا من الإحباط، فشعروا بعقم الواقع ، مما دفع البعض منهم إلى البحث عن آفق آخر ينسيهم آلامهم وهمومهم ، بل يكون سبيلا لخلاصهم من تلك التوترات، فكانت "الرؤية الصوفية واحدة من الأفاق ولعل أكثرها التي ستمكن الأديب ممثلا أساسا في صورة الروائي المعاصر من تخطي حدود الواقع بتعقيدهاته إلى آفق يبعث الأمل في النفس.

من هذا المنطلق لمسنا بل وجدنا الروائي العربي المعاصر قد لجأ إلى أحد أهم ركائزه ألا وهو "التراث" واختار من داخله شخصيات عدة تم توظيفها في شكل قناع يعتبر من خلالها عن تجربته الخاصة، ولعل أكثر الشخصيات حضورا في النص الأدبي بنوعيه (شعري، نثري، روائي) هي الشخصيات الصوفية ، ذلك نظرا للصلة الوثيقة التي تربط بين الأدب والتصوف وعلى هذا الأساس ليس غريبا أن يعبر أديبنا أو شاعرنا عن أبعاد تجربته الإنسانية من خلال أصوات صوفية، هي بمثابة أفنعة يتحدث بها ومن خلالها أديبنا عن مواقفهم، غير أن عملية اللجوء هذه ليس القصد منها التخفي في جلايبها بل لتصبح الشخصية "مثل الشاشة البيضاء

التي يعرض عليها المتحدث صورته وصوته، فهي مجرد سطح حساس لا قبط لضوئه، أما المرأة فهي عدسة الأديب الحديث الخالصة ، فهي الفاعل وإن بدت مفعولا به<sup>1</sup>. وقد لاحظ بعض الدارسين بأن الأدباء المعاصرين الذين تقمصوا شخصيات صوفية أحسنوا التقمص، لأنهم يعتبروا حقيقة عن حجم المعاناة والآلام الموجودة في المجتمع<sup>2</sup>، ومن ثمة أضحت استدعاء الشخصية الصوفية توظف كتقنية فنية مستحدثة للتعبير والتوغل في أعماق الذات والمجتمع، غير أن الأمر لم يتوقف أمام عملية الاستدعاء، بل تعداه إلى الاندماج والخلول في الشخصية المستدعاة، حيث نجد الروائي يتحدث بلسان الشخصية المستدعاة (ضمير المتكلم) جاعلا إياها تحمل أبعاد تجربته الخاصة، يتحدث بلسانها، كما يدعها تتحدث بلسانها، الأمر الذي يجعلنا نسلم قطعا أن ذلك الأديب وتلك الشخصية كيانا واحدا لا ينفصل الأول على الثاني، وهذه التقنية والجديدة التي تحمل في طياتها أبعاد الصوفية استطاعت أن تترجم حقيقة الذات ومعاناتها من جهة، وصراع المجتمع مع الواقع المعيش الذي يعيشه من جهة ثانية، وهو ما يشكل أزمة حقيقية متعددة الجوانب.

وهو ما نلمسه عند الأديب الجزائري الكبير الطاهر وطار في روايته الموسومة ب: الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي وقبل الغوص في ثنايا الرواية، وما تحمله من أبعاد صوفية أسهمت بشكل كبير في توضيح الرؤية وإزالة الغموض والإبهام الذي يتشكل في الرواية وأردت أن أسلط الضوء على عنصر الشخصية، الذي في اعتقادي أعد يمثل عنصرا أساسا في معادلة الرواية، سيما وأن الشخصية هي المحرك الأساس للأحداث وتفاعلها، بل تتيح الفرصة للقارئ ليفهم ما يجري ويدور من أحداث فيها، لذلك وجدت نفسي وأنا اكتب هذا المقال مجبرا لا مخريرا على المرور عبر أشياء لا بد منها، ألا وهي الانطلاق من مفهوم الشخصية، مرورا بالتصوف وماهيته، وصولا إلى نسيج التعالق الذي هندسته الشخصية مع التصوف،

ومن ثمة تشكل المعادلة الروائية الآتية: التصوف في الرواية من خلال استحضار الشخصية.

## 2. مفهوم الشخصية:

### 2.1. اللغة:

قال ابن منظور في اللسان في مادة (شخص) أن الشخص هو شخص الإنسان وغيره مذكر والجمع أشخاص وشخوص وشخاص، والشخص سواد الإنسان وغيره، ما تراه من بعيد ويقال رجل شخيص إذا كان سيذا<sup>3</sup>.

### 2.2. اصطلاحاً:

أما الشخصية في معناها الاصطلاحي فتحمل معنى أحد الأفراد الخياليين أو الواقعيين الذين تدور حولهم أحداث القصة أو المسرحية<sup>4</sup>، فالشخصية الروائية هي عنصر رئيس يحدد الكاتب من خلاله فحوى روايته، وهي كائن خيالي يختلف عن شخصيات الواقع وشخصيات التاريخ، فالقارئ ليعرفها أكثر من الشخصيات الواقعية والتاريخية، وذلك لوجود جوانب غامضة في كل من الشخصية الإنسانية والتاريخية، لا يدركها المتلقي؛ بينما الشخصية الروائية واضحة مكشوفة؛ وتوحي للمتلقي بإمكانية معرفة ما يشاء معرفته عنها، ومن ثم يأنس إليها لاستشعاره بالقرب منها، ولأن سلوكها دوماً معلل في نظره؛ مما يبعده عن التوتر النفسي الناشئ عن البحث في مسببات الأشياء وعللها، ذلك لأن استيطان الكاتب لوعي شخصياته يجعلها تكشف عما في نفوسها، فيصبح كل ما يصدر منها متوقعا<sup>5</sup>.

وإذا رجعنا إلى العنصر الأساس الذي لا يقل أهمية عن العنصر الأول ألا وهو التصوف والتصوف والصوفية من التزهّد وألبس الصوف، وهو مصطلح ظهر أول مرة حسب الوثائق المعروفة عام 776م، ونسب لمتزهّد عراقي، ويدل المصطلح في الكوفة وبغداد على جماعة الزهاد<sup>6</sup>، ولم يكن من الغريب أن ينشأ التصوف .

كفكرة وممارسة . في مرحلة مبكرة في تاريخ الإسلام بحكم عوامل تاريخية وثقافية وسياسية وعقائدية، إلا أن السبب الرئيس يبقى عقائديا "فالتصوف هو الصيحة الخالدة من جانب الروح الإنساني لتحقيق الراحة، إنه الشوق الذي لا يشبع إلا الإمساك بالمثل الخالصة التي قيدها الواقع البائس، هذا الروح الذي يأبى إلا أن يجعل صوته مسموعا إنه مسيرة موحدة بشكل عجيب في كل العصور... إنه جوهر الإعلان البين لتطلع الروح إلى الانقطاع الكلي عن نفسها والالتجاء بالله"<sup>7</sup>.

### 3. الشخصية الروائية الصوفية:

إن الشخصية الروائية المأخوذة من المصدر الصوفي تأخذ حيزا لا بأس به في نفس القارئ العربي، يشابه إلى حد كبير مكانة المتصوف الحقيقي في نفسه؛ لذلك تكتنفها دائما هالة من التبجيل والاحترام، فلا تتحدث بطريقة غيرها من الشخصيات الواقعية، إذ أن سلوك المتصوفة يفرض عليها أسلوبا خاصا في الحديث والصمت، وخطابا ينطوي على رسالة اجتماعية، تختلف عن الرسائل المبنوثة عبر خطابات الآخرين، والخطاب الصوفي يبني . أصلا . على لغة المتصوفة المتوافقة مع مواجدهم الداخلية المغايرة للغة غيرهم، وهو خطاب يخلو من ميزة التواصل السهل مع الآخر، إذ يصعب فتحه على المتلقي نظرا لما يحتويه من إشارات ورموز يصعب فكها ومعرفة مقاصدها إلا إذا كان المتلقي ذا دراية بالمعجم الصوفي تمكنه من معرفة وإدراك مرامي وأقوال المتصوفة.

### 4. سمات الشخصية الصوفية في الرواية:

ومع أن القاموس اللغوي لهذه الرواية، وبدء من العنوان الذي يتشكل من ألفاظ ومسميات صوفية تكون قد أضفت على الرواية هذا البعد الصوفي من جانب اللغة المستعملة، إلا أن الرواية ليست كتابة صوفية، وهو الأمر الذي قال به الطاهر وطار نفسه " ..بالدرجة الأولى أن لكل موضوع مواد وأدواته، فأنت لا تستطيع أن

تكتب عن إيديولوجية ما دون أن تستعمل لغة ومنطق ومفردات مناظليها ورجالها ومنظريها كذلك.... إنك وإذا ما تواجدت في مسجد مجبر ليس فقط في استعمال لغة دينية، بل على الوعظ والإرشاد كذلك<sup>8</sup> ولعل أهم هذه المفردات الصوفية المبنوثة في ثنايا الرواية نجد: الولي، الشيخ، الطاهر، الزكي، الدعاء، التضرع، الذكر، الحضرة التهايل الكرامات، الخلوة، المصلى، المریدون، المریدات ....<sup>9</sup>.

ولو أردنا أن نسقط هذه الأمور مجتمعة نجدها تتوافق وتتطابق مع سمات الشخصية الصوفية في رواية الولي الطاهر فالتسمية توحى بصوفية المسمى (الولي الطاهر)، وهي تتميز بتسميات غير محدودة ويل وقيامها بأفعال خارقة الكرامات، فالكرامة خاصة بالمتصوف، فإن كانت الشخصية الروائية صوفية فعلى الروائي أن ينقب في التراث على ملامح القوة الخارقة وهي ما توفرت في شخصية الولي الطاهر، قال الراوي: " وجد الولي الطاهر نفسه قوة خارقة، فكان وحده يقوم مقام عشرة محاربين أشداء، مما جعله محط أنظار الجميع"<sup>10</sup>، فالولي يحمل في طياته دلالة شعبية إذ كثيرا ما يتردد على أسنة السواد الأعظم من الناس كلمة الولي لدفع الخوف المهدد من مصادر بشرية أو طبقية وتحقيق للرغبات المفقودة والمعلوم بها، وللاسترشاد لتطهير النفس وتنوير الروح وهم بصدد قضاء حاجة معينة فالولادة بمثابة وسائط روحية بين العباد والله سبحانه عز وجل وهو في خط تماس مع المتصوفة.

إن كلمة الطاهر المسندة إلى الولي تشكل معادلة صوفية بامتياز لأنها قد تكون نعنا بمعنى في الدلالة على التقوى والاستقامة، وربما تكاد نجزم على الحالة التي يستقر عليها هذا الطاهر، فهو يرفض رفضا قاطعا الإغراءات والهوى والشهوات هذا مان الناحية الظاهرية، غير أنه يحوي سمات مضرة مخفية كالخبث والدناءة..، أما السمة الثانية للشخصية الصوفية هي: المثالية والترفع عن الصغائر، ويعني هذا

أن المتصوف بكل ما يحمله من قيم فلا يرى بين العامة ولا يقول أقوالهم ويفعل أفعالهم، ولا ينشغل بتوافه الأمور مما يشغل العوام، بل هو دائما في رحلة انشغاله بعبادته وأذكاره والمحافظة على القيم الأخلاقية والاقتصادية وأحيانا السياسية للمجتمع سعيا وراء المصلحة العامة ورفعة المجتمع، وهذه السمة تظهر بصورة واضحة وجلية في ثانيا الرواية، فيمكن أن نمثل لهذه السمة بموقف الولي الطاهر مع البنات الزائدة على المأتين، وهي تنظر إليه بشغف أما هو "فقد كان يتحاشى النظر إليها، كانت تتأمله، ثم قال في إلحاح وقد لعن الشيطان الرجيم: لنفرغ من المسألة"<sup>11</sup>، ولعل هذا الموقف يمثل نرجسة حقيقية ينعكس من خلالها قمة المثالية برجل منفرد مع فتاة تشعره بأنها ترغب فيه.

التقوى والورع وهما من لوازم المتصوف في كل حركاته وسكناته إذ هما سر ما يجده من تقدير واحترام المجتمع له، وإذا أردنا أن نمثل لهذه السمة في النص الروائي ومن ذلك أنه في بداية الرواية لما وجد نفسه قد وصل إلى أرضه كان أول ما فعله الحمد والشكر لله على نعمة بلوغ الأرض وإن لم يبلغ المقام بعد، ثم قراره أن يصلي ركعتين لله وهذه دلالة على التقى<sup>12</sup>، كما يمكننا أن ندرك ورعه من خلال الموقف الراقي مع بلارة التي كانت شبه عارية عندما "ارتمت في أحضانه ... غفة لدنة دافنة"<sup>13</sup>، فعلا هو موقف حكيم خاصة عندما كان يدفعها إلى الخلف بقوة ويصر على قتلها تطهيرا لمقامه الزكي.

وهنا يتبادر إلى ذهني سؤال مهم ألا وهو، هل ظاهر هذا الشيخ الطاهر الذي يؤكد المؤلف على وصفه بالطاهر كبقية شيوخ المتصوفة؟ الواقع أن الشيخ عند المتصوفة هو بمثابة الأستاذ المرشد، والمريد كالتالِب، والتالِب لا يستطيع أن يقدم في دروسه دون موجه ومرشد، لا يستطيع الفرد في نظر المتصوفين أن يسلك هذا الطريق بمفرده والشيخ هو الذي سَلط الطريق على يد شيخ واصل، فترقى في

المقامات، من مقام التوبة إلى مقام المشاهدة... ثم يعاد بعد اعتلاء تلك المقامات ليقيم الشريعة<sup>14</sup>.

ويمثل الصوفية للعلاقة التي تجمع الشيخ بالمريد، وحاجة المريد للشيخ، بالشجرة إذا أنبتت نفسها من غير غارس فإنها تورق، ولكنها لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ وينهل منه طريقه، فهو عابد هواه لا يجد نفاذاً<sup>15</sup> ومع كل هذا يرى المتصوفة أن من لا أستاذ له، إمامه الشيطان الذي يقود مريده إلى الجحيم، ولهم في رسول الله . صلى الله عليه وسلم . أسوة حسنة، وهذا من خلال ما قام به . صلى الله عليه وسلم . من تعليم الصحابة الدين والشريعة، وبقيت سنته تتبع بعد القرآن الكريم.

لقد جسدت رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي للطاهر وطار التجربة الصوفية تبعا لطبيعة المرحلة التاريخية، التي مر بها المجتمع الجزائري بعد الاستقلال، وبالتحديد في سنوات التسعينات، ويمكن للمتلقي أن يستجلي خصوصية التجربة بادئ ذي بدء، من خلال مصطلح "الولي" بل من خلال عنوان الرواية ككل، فالولي هنا في لغة الصوفية يقصد به المرشد، الشيخ، القطب، الدليل، ويتميز بتجربة واسعة في العلم ووصوله إلى الحق بنفسه، إضافة إلى تميزه بكمال الصفات والقدرة على إرشاد المريدين.

بقول السهر وردى في علاقة المريد بالشيخ: " ...ثم لا يزال المريد مع الشيخ كذلك متأدبا بترك الاختيار حتى يرتقي من ترك الاختيار مع الشيخ إلى ترك الاختيار مع الله تعالى، ويفهم من الله كما كان يفهم من الشيخ"<sup>16</sup>.

فمن واجب الشيخ والمتق عليه في كل الطرق الصوفية نحو المريد أن يتعرف على أحوال مريديه، وعليه أن يحافظ بينهم على حدود الله، ولا يجوز للشيخ أن يعلم المريد الأذكار حتى يشهد قلبه للمريد بالعزم، ويعد أن يجربه بعلمه ذكرا من



الأذكار، ومن ثم يعرف المرید بقولهم: " هو الذي صح له الابتداء، أو حصل في جملة المنقطعین إلى الله تعالى ويرون أن إرادة المرید لا تصح حتى يكون الله ورسوله سواس قلبه"<sup>17</sup>.

وهو ما تجسد من خلال هذه الرواية، فالملاحظ أن شيخ الرواية عمل اقتران اسمه بالطاهر ومن ثمة الشخصية الصوفية، والطاهر كما ورد في معجم الكلمات الصوفية للنقشبندی هو: " من عصمه الله تعالى عن الوسواس والهواجس والتعلق بالأعيار، وطاهر السر، هو من لا يذهل عن الله طرفة عين، وطاهر السر والعلانية هو من قام بترقية حقوق الحق والخلق جميعا لسعته برعاية الجانبين"<sup>18</sup>.

بيد أن الشخصية الصوفية تظهر بوضوح في هذه الرواية بل هي من الظواهر اللافتة للانتباه في هذا الصدد نزوع الروائي إلى استدعاء الشخصيات الصوفية، وهذا ما نجده حتى في النص الشعري المغاربي في صورة أشعار الرباوي وحمادي ومحمد الخالدي، حيث نجدهم يستحضرون في نصوصهم الصوفية بعض أعلام التصوف المشهورين كاللحاج وابن الفارض وجلال الدين الرومي وغيرهم، فيختار الأديب المعاصر ليكونوا قناعا يختفي من ورائه، بل وأحيانا يطون فيهم ويتحدون اتحادا كاملا وقد لا نبالغ لما كما يقول الدكتور محمد بنعمارة: " إذا اعتقدنا أن بعض أدبائنا المعاصرين بلغ بهم الأمر أن رأوا أنفسهم وتجارهم، وإيقاع حياتهم الروحية والاجتماعية والسياسية في بعض الشخصيات التراثية الصوفية"<sup>19</sup>.

الأمر ينطبق على الطاهر وطار الذي اعتمد على هذه التقنية الجديدة في الكتابة الروائية، ونظرا لقيمة وأهمية هذه الإستراتيجية الدلالية كانت الشخصية الرئيسية في الرواية صوفية، تعيش حالات تتجسد في حالة واحدة ومن المعروف من الناحية النظرية أن الشخصية يمكن أن تدخل النص ومسار الرواية بطريقتين:

إما أن تدخله ممثلة دلاليا، وإما أن تدخله بياض دلالي يمتلأ بمرور الوقت عبر المسار السردي، ويكون ذلك، بما يمكن أن تقوله عن نفسها بنفسها، أو بما تقوله باقي الشخصيات عنها، أو بأن يتكفل السارد بالتعريف بالشخصية<sup>20</sup>.

وأول ما يثير الانتباه في بداية الرواية بعد عنوانها قول السارد: " تنفس الولي الطاهر من أعماقه، فالولي هو الشيخ صاحب المقام، وهو من عصمه الله من المعاصي، وهو طاهر الباطن والظاهر .

ولما كانت هذه التسمية تحمل هذه الدلالات الصوفية انطلاقا من هذا الاستلاء الدلالي فصدق باختين عندما يقول: " الكلمة تقوم منها دلالة ما "21، ورائحة تسمية الولي الطاهر هي رائحة صوفية دون شك.

غير أننا نقف موقف المتسائل لما قاله السارد للتعريف بهذه الشخصية، وما قال به الولي نفسه " يا من هنا، يا من هنا أنتم يا معشر المريدين المريجات، أنا شيخكم، الولي الطاهر صاحب المقام الزكي، أعلمكم بعودتي، أنتم يا من هنا، إنسا أم جنا كنتم أنا شيخكم الولي الطاهر صاحب المقام الزكي "22.

يستوقفنا في هذا القول نوع من التساؤل الذي يبحث عن القلق ألا وهو: هل هذا الولي ينتمي إلى عائلة الجن أم الإنس؟، غير أنه في اعتقادي الخاص، وبناء على المعارف المترابطة التي قرأتها في الحقل الصوفي والذي يعتمد على الطهر الباطني والظاهري أن شيوخ المتصوفة أبعد الخلق عن عوالم الجن، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يظهر جليا من خلال الصفات الجسدية التي عرف بها الولي الطاهر أنه يخالف في مظهر بني الإنس، من ذلك الوصف الذي يقدمه به السارد عارض بذلك ملمح الشيخ: "...كانت تتأمله مثل هفة، أسمر اللون، مستطيل الوجه مقوس الأنفاس، مكتنز الشدقين، كث الحاجبين، ماضي العينين أكحلهما، لحيتهما يتراوح لونها حمرة وسواد، عريض المنكبين، ينسدل على كتفه شعر رأسه الأسود الغزير، طويل مستقيم القوام "23.

تشير فقط هنا إلى تماهي هذه الشخصية الصوفية "الولي الطاهر" بشخصيات أخرى شخصيات تعتبر مرجعية<sup>24</sup>، وهذا في حد ذاته يشكل امتلاء دلاليا للشخصية، لأنه يتماهى مع هذه الشخصيات يصبح حاملا لتلك الشخصية التاريخية ومن ثم تعكس حجم العلاقة الكبيرة التي تربط بين الولي الطاهر بشخصية خالد بن الوليد الذي يتحول إلى قائل مالك بن نويرة، وحب لأُم متمم زوجة مالك، وما ينتج عن ذلك من أخبار ومعلومات تاريخية عن خالد بن الوليد ومالك وحروب الردة.

لكن هذه الشخصيات المرجعية خالد بن الوليد، مالك...، لم تكن وحدها من تشكيل دلالة الولي، وإلا كيف نفسر دخوله النص كان مع العضاء، وتواصل حضوره معها حتى نهاية الأحداث التي انتهت باكتشاف سر علاقتها بالولي الطاهر.

الجدير بالذكر أن ارتباط العضاء بالولي في ملمحها صفة ترتبط ببلارة المرأة الفاتنة التي حذرت الولي الطاهر من سفك دمها، فكان أن ضاع وانمحت ذاكرته، فغاب عن مقامه كل ذلك الغياب دون أن يعلم أين غاب، وكم دامت غيبته، وقد تكون الفتنة هذه هي الوباء الطاهر الذي أعجز الولي الطاهر، لكن ذلك عرضي، لأن الداء كان بالجواهر إذا ما رجعنا إلى لغة المتصوفة، فالولي لم يقدر لأنه كما قال: "إذا ما مس الوباء الروح فلا علاج غير الاستحمام بالذكر"<sup>25</sup>.

وصفوة القول أن الروائي الطاهر وطار قد استعار في هذه الرواية شخصيات صوفية جعلها أفنعة للتعبير من خلالها عن طموحات الإنسان إلى الحرية والعدالة، ويعبر في الوقت نفسه عن الواقع ومفارقاته، وقد كانت لهذه الرواية التي وظف فيها الطاهر وطار الأدوات الصوتية المناسبة خاصة وأن النص الصوفي كان له درجة كبيرة من التأثير على الأجيال المتعاقبة لكونه ينطوي على منطلقات الحداثة من حيث المبدأ فالتجليات الصوفية تبرز في النص عبر صور مختلفة كالعبارة الصوفية والشخصية الصوفية هذه الأخيرة محور الدراسة في هذا المجال، ناهيك عن الدلالات المختلفة لتلك

الرموز من روحية واجتماعية وسياسية وهي واضحة وضوح الشمس في المتن الروائي لهذه الرواية والتي تدل على تأزم الذات فيدفعها ذلك إلى البحث عن البديل.

### 5. رمزية الشخصيات في الرواية:

مما لا شك فيه أن الروائي الجزائري الطاهر وطار في روايته الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي أحسن اختيار والتقاط الأسماء التي تسير أحداث الرواية وقد تعامل معها بنوع من الذكاء، إذ نجده تقريبا لا يوظف إلا أسماء أشخاص عاشت معاناة كبرى، وكانت ضحية قضية معينة وكانت نهايتها مؤلمة أو مجهولة .

ومهما ادعينا الإحاطة بأسماء هذه الشخصيات أو توغلنا في دراستها فإننا لا نستطيع سبر أغوارها النفسية كما هي موجودة في ذهن الروائي الطاهر وطار لأنها عنده عالم غير محدود، بل كلما توهمنا القبض على إحداها ومحاصرتها إلا واكتشفنا بعد حين أنها تقلت من قبضتنا، نظرا لكونها علامات مركبة، الشيء الذي منحها وجوه متعددة تستدعي المزيد من التأمل، تركيبها الفسيفسائية هذه لا يلملمها إلا العنوان، إذ تكون تارة رمزية موحية بدلالات صوفية عميقة اختارها الروائي مرة ليشوش على فكر المتلقي، ومرة أخرى ليضعه في مفترق الطرق، فكانت بذلك علامات يهتدي بها القارئ إلى دوال مختلفة تعالج إشكالية الجزائر في هذه الفترة التاريخية وعلاقتها بالماضي البعيد والقريب، فهي رسمت عالما متناقضا ثقافيا وسياسيا واجتماعيا .

إن الشخصية تتحول إلى شخص مختلف تعيش في الماضي والحاضر، فالولي الطاهر له شخصية الولي، وفي بعض الأحيان يصبح هو مالك بن نويرة بل أكثر من ذلك يصبح كل المريدين بالمقام الزكي والمريدين أم متمم كل الإناث أم متمم، كل الذكور مالك بن نويرة<sup>26</sup>.

فنتيجة وصول الوباء أو البهلة إلى المقام الزكي لتصير الشخص مكررة لنفسها تعيش الماضي والحاضر، وتغيب الحدود بين الزمنين والأكثر من ذلك يحل الولي الطاهر

عبر الكرامات ويخترق كل شيء، ومن ثمّة تبقى الشخصية بهذه المواصفات مبهمة وهاربة لا يمكن القبض عليها وهنا تبرز قيمة الكتابة الصوفية بمعجمها وعباراتها الغامضة التي تتطلب من القارئ أن يحسن التعامل معها حتى يصل إلى مراده وكشف أغوارها.

يبدو أنني تكلمت وأسهب كثيرا في ذكر الشخصية الرئيسية في الرواية وهي شخصية صوفية محورية تدور حولها أحداث هذا النص الروائي غير أن يمكن قوله في هذا الشأن أن الشخصيات في هذه الرواية تنقسم إلى شخصيات رئيسية وشخصيات ثانوية وأخيرا شخصيات هامشية.

### 1.5 الشخصيات :

-بطل الرواية الولي الطاهر كما أسلفت الذكر ، فهذه الشخصية فرضت نفسها علينا بل أخذت حيزا كبيرا من الاهتمام والدراسة والتحليل لأنها العمود الفقري للرواية وأحداثها، فبطل الرواية الولي الطاهر يمثل ثلاثة أدوار هامة ومهمة في ثنايا النص الروائي وهي:

البطل الصوفي - المسلم التائه - الإرهابي.

-بلارة.

-العضباء.

-**الولي الطاهر:** بطل الرواية، فالولي كما ذكرنا سابقا يرمز إلى السيادة والزعامة، الرئاسة، الولاية، السلطة، أما الطاهر فيرمز إلى النقاء، الورع التقوي، العفة، فهذا الولي هو مركز ثقل الأحداث تتطلق منها وتصل إليه، فقدّم لنا المؤلف شخصية الولي على أنها شخصية رئيسية كما يسميها واسيني الأعرج بالشخصية الجذع<sup>27</sup>، حيث نتعرف على الولي الطاهر أولا ومن خلاله نتعرف على الشخصيات الأخرى، وقد جمع الطاهر وطار، في هذه الشخصية كل المتناقضات، فهي متعددة الوجوه بطل صوفي، إنسان مسلم تائه، حاكم متسلط، إرهابي.

-البطل الصوفي: يستمد هذا البطل من التراث كرامات الأولياء " لقد وهبتني لنصرة دينك ووهبتني كرامتك لا تنس ما أقرأتني ولا تجعل الوباء يصل إلى قلبي، ولا إلى مخي"<sup>28</sup>، إنه حامي الفيافي من الوباء الذي مس الناس " نعم أنا هنا صاحب المقام الزكي، وسيد هذه الفيافي وحامي الأمة من الوباء "<sup>29</sup>.

فهو يعيش خارج الحضارة في شطحات صوفية في وقت حققت فيه الشعوب الأخرى الرفاهية عن طريق استثمار العلوم يقول: " خف الإيقاع ولم يكن هناك لا نور ولا ظلمة، لا بياض، ولا سواد، الأعين مغمضة، والأيدي كما الصدور تعلق وتنخفض، يهزني الهفو فأهفو لحبيبي، حيث يشاء بقريتي فلا أنسى ويبسرنى لليسرى "<sup>30</sup>.

-المسلم التائه: وذلك من خلال تحقيقاته إلى عهد عمر بن الخطاب، بحيث تكون له كرامات تشبه معجزات الأنبياء والمرسلين، فالكرامة هي بعث الماضي والحاضر، فهو يهرب من جلده، ويحن إلى عصور خلت لا هو فيها، ولا هو في الحاضر.

نجد الروائي يصف كيفية صلاة الولي الطاهر، قرأ الفاتحة وسورة الأعلى وتوقف عند الآية " سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى". سورة الأعلى، الآية 13.

والركعة الثانية وجد نفسه يتلو " ألم تر إلى ركب كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ". سورة الفرقان، الآية 45.

وهذا ما يوضح لنا جهل الشخصية لأمر الدين ذاته، فالولي الطاهر لا يحسن حتى إقامة الصلاة، فهو إذا ما قرأ مصليا يقرأ القرآن منكوسا وهو أن يبدأ بالمعوذتين، ثم يرتفع إلى البقرة والسنة خلاف ذلك.

-الإرهابي: وذلك من خلال امتلاكه كل مواصفات الإرهابي، بحيث يصدر الأوامر بقتل الأبرياء " توزعوا على كل بيت، ولا تبقوا على من جرت عليه الموس، ولا من تجر عليه، من حاضت ولو تحض "<sup>31</sup>.

وهو صانع الوباء عندما تتهمه إحدى الفتيات بقولها: " تقتحم عاي الواحدة منا فراشها فنظل تأتيها إلى أن تصرخ: يا خافي الألفاف نجنا ما نخاف"<sup>32</sup>.

-بلارة: هذه الشخصية التاريخية هي جزء من الحدث، فهي تابعة للشخصية الرئيسية، ومرآة لها، كما أنها تبلورها أكثر إذ يصفها الكاتب "بأنها بيضاء مستديرة الوجه، عيناها كبيرتان، كالحنا السوداء، فمها صغير، مكتنز الشفتين، أنفها الأفطس يضي على ملامحها مسحة هرة أو لبوة"<sup>33</sup>.

لقد كانت بلارة شبه عارية قميصا حريريا ورديا، ثم سروال جينز، بعضه مبيض وبعضه الآخر يحتفظ بزرقته الداكنة، وقذفت حذاءها ذي الكعب العالي غير مبالية بموقعه<sup>34</sup>. أما مشروعها الذي تريد أن تحققه رفقة الولي الطاهر، فهو تتجب منه ولذا يكون كل الناس وهؤلاء الناس أصحاب الحضارة وتطور<sup>35</sup>.

فهذا المشروع يتناقض مع مشروع الولي الطاهر الذي يقوم على إقامة الدولة الإسلامية، لأنه يدعو إلى شيء يشبه الديمقراطية الحديثة التي تسمح بتعدد الأعراف والأجناس والديانات فبلارة تسعى من خلال شخصيتها إلى إقامة مجتمع علماني جاء الولي الطاهر ليقلع جذوره والدليل على ذلك الشعارات التي رفعها الإسلاميون في إضراباتهم عام 1991.

ومن خلال تحليلنا لصورة بلارة في الرواية نجدها ترمز إلى الجزائر ولعل أول معنى على جزائريتها وصفها بالفتنة الأمازيغية<sup>36</sup>.

فبلارة " الفتنة الأمازيغية، لم تكن ساحرة، لا ولم تكن جنية من جنابات النصف الخالي ولا شيطاننا رجيماً "<sup>37</sup>.

وإذا عدنا إلى تاريخ الدولة الحمادية وحضارتها، نجد أن بلارة من الدولة الزييرية ابنة الأمير تميم بن المعز وقد وقع اتفاق صلح بين الأميرين الحمادي والزييري، وزوج تميم ابنته بلارة من الناصر فاستطاعت أن توحد الدولتين<sup>38</sup>.

-**العضباء:** هي الأتان وسيلة نقل قديمة واستعمال الدابة خصيصا له عدة دلالات فهي رمز السلام كما يمكن أن تكون رمزا لدابة يوم القيامة حين تأتي هذه الدابة على كل شيء ويستل الأيمان من صدور الناس وتدنو الشمس من رؤوس العباد يقول الروائي: هذه الشمس المذهلة هل فقدت اتجاهها ضاع عنها المشرقان والمغربان، فلا تدري أين تذهب.

وهذا تلميح إلى الوضعية المزرية بعد المكانة التي صنعتها الجزائر لنفسها بين دول العالم.

وقد تدل العضباء على النقص والحاجة والضعف والسكون والوحدة فالعضباء هي الناقة المشقوقة الأذن، وهو سر ملازمتها للولي الطاهر طول مسار النص الروائي، وهذه إشارة إلى مشروع الإسلاميين الذين اعتمدوا على العواطف لتسيير أمور الدولة.

#### خاتمة:

صفوة القول لن نبالغ إذا قلنا أن الأديب المعاصر ممثلا على سبيل المثال لا الحصر في صورة الروائي خاصة، ونحن نسلط الضوء في هذا المقال على النص الروائي وكيفية استعار شخصيات صوفية جعلتها أفنعة للتعبير من خلالها عن طموحات الإنسان العربي بصورة عامة والجزائري بصورة خاصة إلى الحرية والعدالة، وهو ما نجده مجسدا في المتن الروائي للروائي الجزائري "الطاهر وطار" في روايته الموسومة بـ: "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" الذي استعمله الطاهر وطار ليعبر عن زيف الواقع ومفارقاته والحقيقة التي يجب أن نقف أمامها كقراء للنص الروائي هي تأثير النص الصوتي على الأجيال المتعاقبة لا شيء إلا لكونه ينطوي على منطلقات للحدث من حيث المبدأ فالتجليات الصوفية والشخصية الصوفية (موضوع الدراسة) ودرجة التعالق مع الدلالات المختلفة من رموز روحية واجتماعية وسياسية والتي تدل على تأزم الذات في دفعها ذلك إلى البحث عن البديل.



فقد أراد الطاهر وطار من خلال نصه الروائي الموسوم ب: الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي أن يعبر بشخصية صوفية ابتدعها الروائي الطاهر وطار من نسيج خياله، وأضفى عليها أبعادا عرفانية، فهي مجرد قناع قد اختفى وراءه ليعبر عن هموم واقع عربي مضطرب تسعى هذه الشخصية التي سيطرت عليها الهموم والعبودية لا صلاح ما يمكن إصلاحية ، فالذات العربية أصبحت أمام ضرورة لاختيار عندما نجد نفسها متمسكة بالجانب الروحي الذي يحكم مشاعر وإحساسات هذه الأمة.

### الهوامش :

- 1- عبد الحكيم العلامي، الولاء والولاء المجاور بين التصوف والشعر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، سلسلة كتابات نقدية، العدد 132، مارس 2003، ص107، 108.
- 2- محمد بنعمارة، الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001، ص266.
- 3- ابن منظور، الإمام جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1994م، مادة شخص.
- 4- وهبة مجدي، المهندس كامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص228..
- 5- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، د.ط، 1987م، ص76.
- 6- جان شوقلي، التصوف والمتصوفة، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1991م، ص
- 7- عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 2003، ص03.
- 8- الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، منشورات الجاحظية، الجزائر، ط1، 1999، ص08.
- 9- المصدر نفسه، ص31.
- 10- المصدر نفسه، ص31.
- 11- المصدر نفسه، ص18.

- 12-المصدر نفسه، ص.22
- 13-المصدر نفسه، ص.23
- 14-السيد محمد عقيل المهزلي، دراسة في طرق الصوفية ، دار الحديث ، القاهرة، ط2، د.ت، ص.28.
- 15-أبو القاسم عبد الكريم ، الرسالة القشيرية، دار الكتب المصرية ، القاهرة، ط6، 1985، ص.735.
- 16-المهر لي، دراسة في الطرق الصوفية ، ص.29.
- 17-أبو القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، ص.735.
- 18-أحمد النقشبندي الخالدي، جامع الأصول في الأولياء ، معجم الكلمات الصوفية ، دار الانتشار العربي،بيروت، ج3، 1988 ص.51.
- 19-محمد بنعمارة ، الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر ، ص.266.
- 20-فليب هامون، سيمولوجية الشخصيات الروائية ، تر: سعيد بنكراد، دار الكلام، الرباط، ط1، 1990، ص 26-27.
- 21-الطاهر وطار ، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص 09.
- 22-المصدر نفسه، ص 71.
- 23-الطاهر وطار ، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص 09.
- 24-المصدر نفسه، ص 45.
- 25-فليب هامون، سيمولوجية الشخصية الروائية ، تر: بن كراد ، ص.24.
- 26-الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص.80
- 27-واسيني الأعرج، إتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
- 28-الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص.63
- 29-المصدر نفسه، ص.68
- 30-المصدر نفسه، ص.40
- 31-المصدر نفسه، ص.36
- 32-المصدر نفسه، ص.71
- 33-المصدر نفسه، ص.69
- 34-المصدر نفسه، ص.86

35-المصدر نفسه، ص.86

36-المصدر نفسه، ص.84

37-المصدر نفسه، ص.118

38-ينظر: رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، 1977/ص70.